

في الذاكرة

في وداع رفعت النمر*

جابر سليمان**

في الضواحي القصية
حيث ارتطام السماء بهاماتهم يقفون
يصعدون مسالك قلبي ولا يسقطون
إنهم أصدقاء المراثي الأخيرة
إنهم أصدقائي القليلون

الشاعر الفلسطيني محمد لافي،
ديوان "نقوش الولد الضال"

رحل رفعت صدقي النمر (أبو رامي) من دون أن يضيع يوماً نشيد الأرض التي أنجبتته أو أن يضل الطريق إليها، كأنه كان يهتدي بنجمة من سماء فلسطين انفصلت عن مسارها السرمدية وسكنت روحه حتى الهزيع الأخير من عمره المديد.

رحل أبو رامي وأن لنا أن نرثيه. حقاً إنه زمن المراثي الأخيرة لجيل من رجال فلسطين الكبار ممن سبقوه أو ممن ما زالوا يؤنسون حياتنا الوطنية قابضين بعناد وإصرار على جمره حب فلسطين القاتل. إنهم شمس صغيرة تضيء دربنا وجذوع زيتونات عتيقة ينبت عليها عشقنا للوطن. باتوا قليلين اليوم لكنهم ملح الأرض وذاكرتها وخميرة غدنا وحصادنا الآتي لامحالة.

انفصلت نجمة الروح عن جسدها الفاني وعادت لتلحق في سمائها العالية، بينما سكن الجسد ثرى لبنان، في حين كان يتوق إلى السكنى في كنف الدار الكبيرة في نابلس جبل النار، حيث "البئر الأولى" التي رشف منها قطرات العشق للأرض وناسها الطيبين.

البئر الأولى

ولد رفعت صدقي النمر في نابلس سنة 1918، وكان الخامس لوالديه. تعلم والده في المدارس التركية وعمل في سلك الحكومة موظفاً في دائرة المالية. توفي والده وهو لا يزال فتى يافعاً. كان ذلك بعد عام من حدوث الزلزال الكبير الذي ضرب مدينة نابلس سنة 1927، والذي أودى بحياة كثيرين بينهم أخوه رشدي، في إثر وفاة الوالد احتضنه أخوه الأكبر راشد وكان له الأب الحاني. كانت والدته من أسرة الحاج محمد آل سيف. وهي أخت المناضل الكبير عبد الرحيم الحاج محمد (أبو كمال).

عاش الفتى رفعت طفولته في بيت العائلة الكبير "الدار الكبيرة". كانت داراً واسعة يحيط بها بستان فيه كثير من أشجار الفاكهة التي كانت تروى من بركة كبيرة تتجمع فيها مياه المطر. وكان ملحقاً بالدار ديوان كبير وثلاثة إسطبلات لاستقبال الضيوف وخيولهم.

أنهى رفعت دراسته الابتدائية (1925 - 1932) في مدرستي الهاشمية والصلاحية الرسميتين. وأنهى دراسته الثانوية في مدرسة النجاح. ومن أقرانه في المدرسة: محمد العمدة وصلاح عنبتاوي وناجي بشناق وعبد الله محمد صالح. ومن أساتذته: فريد زين الدين وقدرى طوقان وواصف كمال وممدوح السخن وأكرم زعيتر. وكان رفعت النمر يكنّ حباً خاصاً للأستاذ ممدوح السخن الذي كان يعمل على تثقيف الطلبة وتربيتهم وطنياً، بما في ذلك تدريبهم على السلاح خلال العطل المدرسية تحت ستار النشاط الكشفي. وكان المسؤول عن الكشافة في مدرسة النجاح الأستاذ حاتم كمال.

قبيل بدء الثورة العربية الكبرى في فلسطين بقليل، بادر رفعت النمر وثلة من أقرانه إلى عقد اجتماع في مدرسة المنشية/يافا أعلنوا فيه تأليف مجلس للطلبة ربما كان الأول من نوعه في فلسطين. وقد تم اختياره رئيساً لهذا المجلس. عقد المجلس أول اجتماعاته في نابلس في ضيافة الأستاذ قذري طوقان. وكان لهؤلاء الطلبة، ومنهم رفعت النمر، دور في الثورة الكبرى (معركة وادي التفاح ومعركة دير شرف سنة 1936).

يقول رفعت النمر عن أيام طفولته وصباه في نابلس ما يلي: (1) "وسط هذه الأسرة ترعرعت وفي حارات نابلس وأزقتها ركضت ولعبت وتشيطنت. ومن ناسها وأهلها وأساتذتها وتلاميذها رشفت معنى حب الأرض وأخذت بمحاكاة نضالاتها يوماً فيوماً وشغف أهلها بالجهاد جيلاً بعد جيل. فسرى هذا في أوصالي. وبتُ أعرف معنى أن تهنو الحياة وترخص التضحيات من مال ودم في سبيل الوطن." (2)

من المعتقل إلى الجامعة

اعتقل رفعت النمر سنة 1936 بسبب نشاطه الطالبية ومشاركته في الثورة إلى جانب خاله أبو كمال، وأدخل معتقل الصرند. وهناك التقى أستاذه أكرم زعيتر وكوكبة من المناضلين منهم: عزة دروزة وعبد الحميد شومان وراشد أبو غزالة وجمال القاسم والشيخ صبري عابدين - وفقاً لرواية رفعت النمر. ولم يكن الشاب رفعت في ذلك الحين يعرف أن لقاء الحاج عبد الحميد شومان سيقدر وجهته للاحقاً، وسيدفعه إلى العمل معه في المجال المصرفي بعد تخرجه من الجامعة.

أمضى رفعت النمر في المعتقل ثلاثة أشهر انقطع خلالها عن الدراسة، الأمر الذي اضطره إلى الالتحاق بمدرسة سوق الغرب (في لبنان) من أجل إتمام تعليمه الثانوي. وشاءت الأقدار أن يكون خاله أبو كمال لاجئاً سياسياً في دمشق (1936 - 1937)، الأمر الذي مكنه من تبادل الزيارات مع خاله الذي حضر حفلة تخرجه من مدرسة سوق الغرب.

عاد رفعت النمر إلى نابلس تحضيراً للالتحاق بالجامعة. وكان أخوه راشد يريد له الالتحاق بكلية الطب، أما أستاذه قذري طوقان فكان يريد له أن يدرس الهندسة لتفوقه في مادة الرياضيات. لكن الأقدار شاءت أن يلتحق، سنة 1938، بجامعة فؤاد الأول في القاهرة ليدرس الأدب العربي على عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين الذي كان يناديه على سبيل التحبيب بـ "الثائر الفلسطيني".

في الجامعة أسس رفعت النمر رابطة للطلبة العرب كان رئيسها الفخري الأستاذ عبد الوهاب عزّام (شقيق د. عبد الرحمن عزّام، الأمين العام الأول لجامعة الدول العربية). يتذكر رفعت النمر أن الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي) والأستاذ أمين الخولي كانا يتعاطفان مع الرابطة ويدعمان نشاطها. ومن أقرانه من الطلبة العرب في الجامعة: د. شكري فيصل (جامعة دمشق)؛ بهيج عثمان (صاحب دار العلم للملايين)؛ د. حسن صعب (عميد سابق لكلية الإعلام، الجامعة اللبنانية).

تخرج رفعت النمر من جامعة فؤاد الأول سنة 1943. ومن ذكريات الجامعة يروي: "بعد تخرجي من الجامعة بنحو عشرين عاماً قمت بزيارة لمكتب الأستاذ خيرى حمّاد في القاهرة. وللمفاجأة السارة وجدت عنده ثلة من زملاء الدراسة من بينهم: ملك عبد العزيز وفتحية القليني وروحية القليني".

العودة إلى نابلس

عاد رفعت النمر إلى نابلس سنة 1943، وبدأ رحلة البحث عن عمل. كان يريد أن يساعد أخاه راشد في إعالة العائلة بعد أن تحمل الأخ/الأب نفقات تعليمه كافة. وكان يطمح إلى أن يجد عملاً محترماً بلا صعوبة. ولم يكن يتوقع أن أبواب الوظائف الحكومية ستوصد في وجهه بسبب ماضيه النضالي، كما لم يكن راغباً في ممارسة مهنة التدريس التي عرضها عليه أستاذه قذري طوقان.

رُفضت كل طلبات العمل التي قدمها إلى دوائر الحكومة. ولم يكن يتوقع أن يأتي الفرج من سجن الصرند هذه المرة، إذ التقى الحاج منير الأسمر الذي اصطحبه لتناول الغداء على مائدة رفيقه في المعتقل عبد الحميد شومان، الذي كان أسس البنك العربي حينها.

فوجئ الحاج عبد الحميد شومان (أبو العبد) برؤية رفيق المعتقل وسأله بلهجة القروية المحببة: "ميش إنت اللي كنت في المعتقل معنا". أجابه رفعت النمر: "نعم". فسأله أبو العبد: "أين تعمل؟" فرد: "لم أجد عملاً بعد".

ولمّا عرف عبد الحميد شومان بحاله عرض عليه العمل متمرنًا في فرع البنك العربي في مدينة غزة. ومن ثم عينه مساعد مدير لفرع البنك في بغداد. ومن بغداد بدأت رحلته الناجحة في عالم المصارف حتى استحق عن جدارة لقب "شيخ المصرفيين العرب"، الذي أطلقته عليه مؤخرًا "مجلة المصارف".

في عالم المصارف (من بغداد إلى بيروت)

لم ينصرف رفعت النمر إلى العمل المصرفي الصرف على حساب العمل الوطني والقومي، بل إنه غلب في معظم مراحل حياته المهنية (من بغداد إلى عمان إلى الرياض إلى بيروت) الالتزام الوطني والقومي على مكاسب الوظيفة وإغراءاتها - كما سيتضح فيما بعد.

أتاح له عمله المصرفي في بغداد التعرف إلى رجالات الحركة القومية العربية في العراق، مثل مهدي كبة وصديق شنشل وفائق السمراي الذين احتفوا بقدومه نتيجة توصية من أعضاء الحركة السرية العربية في فلسطين الذين كان بينهم - بحسب رواية الراحل - السادة: خلوصي الخيري وفريد السعد وعز الدين الشوا. ومن مفارقات حياة رفعت النمر في بغداد أنه انخرط، بطلب من هؤلاء الأصدقاء، في برنامج لمحو الأمية للكبار، وهو الذي رفض الانخراط في مهنة التدريس في فلسطين. وكان جلّ حديثه مع تلامذته الذين يكبرونه سنًا عن القومية العربية والخطر الصهيوني على فلسطين.

في سنة 1947 انتقل من بغداد للعمل مساعد مدير البنك العربي في عمان. وكان السيد سليمان النابلسي وزيراً للمالية في الحكومة الأردنية آنذاك. وفي تلك الفترة، انضم رفعت صدقي النمر إلى حركة القوميين العرب على يدي د. صلاح العنبتاوي ومحمد العمدة. وكان بين أعضائها آنذاك - وفقاً لرواية الراحل - الشيخ إبراهيم القطان وحمد الفرحان ومحمد طوقان وعلي مانكو ونزار جرداني.

وفي سنة 1957، لوجق أعضاء حركة القوميين العرب في الأردن. وكان اسمه بين المطلوبين للاعتقال، لكنه تمكن من مغادرة البلد إلى المملكة العربية السعودية بمساعدة صديق من دون أن تتمكن السلطات من اعتقاله. ومن محاسن الصدق أنه كان تلقى عرضاً من السيد علي شعث (والد الدكتور نبيل شعث) ورشاد الدباغ للعمل هناك مساعداً لمدير بنك الرياض.

لم يرق له العمل في بنك الرياض، فتركه بعد عامين في إثر تلقيه عرضاً للعمل مديراً لبنك القاهرة في المملكة العربية السعودية، حيث شغل هذا المنصب ثلاثة أعوام. ثم ما لبث أن تلقى عرضاً آخر للعمل مديراً لفرع البنك الأهلي السعودي في سورية ولبنان. وفي الإثر عاد إلى بيروت، لكن لم يمض على عمله الجديد خمسة أشهر حتى استدعي إلى المملكة العربية السعودية ليطالب منه تقديم استقالته على الفور من دون إبداء الأسباب من جانب البنك الأهلي. لكن السبب الحقيقي وراء هذا الطلب كان عدم رضا الأسرة السعودية عنه بسبب ميوله الناصرية ومجاهرته بتأييد جمال عبد الناصر في مجالسه الخاصة. وهكذا ترك العمل في المملكة بعد مضي خمسة أعوام، وعاد إلى بيروت التي ظل فيها إلى أن وافته المنية.

في بيروت، وبدعم من أصدقاء مساهمين في الكويت، تمكّن من تملك أسهم "بنك بيروت للتجارة" سنة 1972، وذلك بعد تجربة غير موفقة لتأسيس "بنك الاتحاد العربي" سنة 1964 بسبب الخلاف مع شريكه الوزير السابق ميشيل المرّ.

ومن بنك بيروت للتجارة لمع نجمه كمصرفي بارع اتصف بالصدق والشفافية، الأمر الذي أكسب البنك سمعة طيبة وضعته في المرتبة العاشرة بين البنوك في لبنان. وقد بقي البنك يعمل بانتظام خلال الغزو الإسرائيلي للبنان في سنة 1982، ويؤمن السيولة المطلوبة للمودعين. وظل رفعت النمر على رأس عمله في بيروت ولم يغادر على الرغم من مدهامة الجيش الإسرائيلي للبنك بحثاً عنه، وهو ما اضطره إلى الاختفاء في منازل بعض الأصدقاء، ومنها منزل في منطقة الحمراء قبالة مقهى "المودكا"، حيث شهد من هناك بأمر عينه عملية مقهى "الويميبي" الشهيرة ضد الإسرائيليين التي دشنت انطلاقاً للمقاومة اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي.

وفي إثر تجربة الدمج بين بنك بيروت للتجارة وبنك بيبيلوس والرجوع عن الدمج بعد عامين، ترك رفعت النمر العمل المصرفي ليتولاه ابنه الأستاذ رامي النمر الذي يرأس حالياً مجلس إدارة بنك "الفرست ناشيونال" (FNB)، ويواصل باقتدار رسالة الأب الراحل.

تجربته في

منظمة التحرير الفلسطينية

شارك رفعت النمر، منذ البداية، في الجهود التحضيرية لإنشاء الكيان الفلسطيني وتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، وتعاون تعاوناً كاملاً مع الأستاذ أحمد الشقيري في هذا الخصوص. وحضر المؤتمر [المجلس] الوطني الأول الذي عقد في القدس سنة 1964 على الرغم من نصيحة بعض الأصدقاء له بعدم الذهاب كونه كان مطلوباً للسلطات الأردنية [سافر إلى عمان على الطائرة نفسها مع عبد المحسن قطان. وفي المطار بلغ السيد قطان أنه مطلوب للتحقيق، فرفض التحقيق معه إلا بحضور السفير الكويتي في الأردن، كونه كان يحمل الجنسية الكويتية. ولماً رفض طلبه عاد إلى بيروت].

رافق رفعت النمر أحمد الشقيري في زيارته التاريخية للصين التي مثلت دعماً كبيراً لإنشاء الكيان الفلسطيني وتأسيس جيش التحرير الفلسطيني. وفيما بعد عارض إقالة الشقيري، وكان حينها نائباً لرئيس الصندوق القومي الفلسطيني، السيد عبد المجيد شومان.

ومع تقديم أحمد الشقيري استقالته ودخول حملة البنادق إلى صفوف المنظمة دُشنت مرحلة جديدة في العمل الوطني الفلسطيني. وفي هذه المرحلة، ظل رفعت النمر نائباً لرئيس الصندوق الذي كان ينتخبه المجلس الوطني مباشرة وليس عن طريق اللجنة التنفيذية للمنظمة. إلا أنه، بحكم الأمر الواقع، تولى رئاسة الصندوق وإدارته غير مرة: الأولى بعد اغتيال المرحوم خالد يشرطي، والثانية بعد استقالة السيد زهير العلمي، والثالثة بعد استقالة د. وليد قمحاوي من رئاسة الصندوق. وفي إبان إدارة رفعت النمر الفعلية للصندوق كانت علاقته بالمرحوم ياسر عرفات متوترة بسبب انتقاده الدائم السياسة المالية لرئيس المنظمة لجهة عدم تقيده بالأصول واللوائح المالية للصندوق التي كان يحرص الأول على تطبيقها بصرامة. كما كان يدعو دائماً إلى توحيد الجباية كشرط ضروري لانتظام عمل الصندوق. على سبيل المثال، رفض ذات مرة صرف شيك للسيد زهير محسن، الأمين العام لطلائع حرب التحرير الشعبية/الصاعقة موقِعاً من أبو عمار. وقد كلفه هذا الموقف احتجازه في أحد مقار الأمن في مدينة شتورة. وفي هذا يقول رفعت النمر: "من أوائل الذين اهتموا لأمرى كان سماحة السيد موسى الصدر الذي أرسل الشيخ محمد يعقوب لزيارتي في الاحتجاج، كما أوفده إلى دمشق سعياً للإفراج عني. وكنت قد تعرفت على سماحة الإمام من قبل عن طريق السيد حكمت قصير." ويتابع رفعت النمر: "كان من بين الأمور التي ناقشها معي سماحة الإمام الصدر قبل إخفائه موضوع البنوك الإسلامية. وقد طلب مني الاتصال ببنك صادرات إيران لبحث هذا الأمر." خلال عمل رفعت النمر في الصندوق القومي مثل فلسطين والمنظمة في كثير من المؤسسات المالية العربية والإقليمية والإسلامية منها: المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في إفريقيا - باديا (1975 - 1983)؛ الصندوق العربي للمعونة الفنية في إفريقيا (1975 - 1998)؛ البنك الإسلامي للتنمية (1977 - 1978).

أمّا على المستوى السياسي فكان رفعت النمر من أشد المعارضين للنهج السياسي للمرحوم ياسر عرفات. وقد رفض، منذ البداية، قرار قمة الرباط الداعي إلى اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، لأنه كان يرى فيه تخلياً عربياً رسمياً عن الالتزام القومي بقضية فلسطين. وفي السياق نفسه، عارض البرنامج السياسي المرحلي، "برنامج النقاط العشر" المقرّر في الدورة 12 للمجلس سنة 1974. وقد ظل حتى آخر رفق في حياته مؤمناً بتحرير فلسطين من البحر إلى النهر، رافضاً أية تسويات تنتقص من هدف التحرير. ومن هنا جاءت معارضته الشديدة لاتفاق أوسلو سنة 1993، التي كان يعبر عنها في كل المنابر بشكل حاد وغير مهادن، لم يكن يروق لكثيرين أحياناً.

بدلاً من الخاتمة

خلال السنوات الأخيرة من حياته تفرغ رفعت النمر كلياً للقراءة والكتابة والنشاط الوطني والعمل الإنساني. في الميدان الفكري نشر ثلاثة كتب هي: "في المصارف والاقتصاد (1): مقالات ومقابلات"، "في المصارف والاقتصاد (2): كلمات ورسائل ومراجعات"، صدر الكتابان سنة 2000 عن الدار العربية للعلوم/بيروت. وكان الكتاب الثالث بعنوان: "صفحات من حياتي: في السياسة والثقافة وبين الناس"، صدر سنة 2002 عن دار العلم للملايين. أمّا على الصعيد الوطني والقومي فتصعب الإحاطة بنشاطه وهو الحاضر والفاعل دوماً في هذا الميدان، ويكفي أن نشير إلى عضويته ودوره الفاعلين في كثير من المؤسسات العربية والإسلامية، مثل: لجنة القدس؛ صندوق العون القانوني للمعتقلين الفلسطينيين والعرب في السجون الإسرائيلية؛ المؤتمر القومي العربي، من دون أن ننسى طبعاً رئاسته

ورعايته للجنة التأسيسية لدعم قضية أهالي ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا في المحاكم البلجيكية. وأمّا في الميدان الإنساني فقد أعطى بسخاء ومحبة وطيبة خاطر لا يعرف حدودها إلاّ من كانوا قريبين منه. فقدم من خلال "صندوق النمر" المساعدات والهبات للأفراد والجمعيات في لبنان وفلسطين في مجالات التعليم والصحة والثقافة، مع التفاتة حانية إلى معاناة وحاجات أهلنا في المخيمات الفلسطينية في لبنان وفي فلسطين، ولا سيما خلال فترة الانتفاضة الثانية.

لا يعني الموت بالضرورة خاتمة العمل الإنساني. فالبعض يستمر عمله وحضوره ويتواصلن حتى بعد رحيله عن الدنيا. وأعتقد أن أبا رامي من هؤلاء الناس الذين يستمر حضورهم وفعلهم مهما يمعنوا في الغياب. ▀

(*) وافته المنية في بيروت في 2007/1/11. ووري الثرى في مقبرة الشهداء قرب دوار شاتيلا/بيروت.

(**) كاتب فلسطيني مقيم بلبنان.

المصادر

- (1) من تسجيل غير منشور للأستاذ رفعت صدقي النمر يشكل جزءاً من مذكراته التي لم يمهلها الموت لإتمامها. وكل الاقتباسات والاستشهادات اللاحقة مصدرها التسجيل إياه.
- (2) قاومت نابلس الحملة العسكرية العثمانية سنة 1657 لبسط السلطة المركزية، والتي أفلحت في تطويق جبل نابلس. كما قاومت حملة ظاهر العمر (حاكم عكا) سنة 1771 لمحاصرة نابلس. وتقاسم آل طوقان وآل النمر الدفاع عن المدينة، فتولى آل النمر الدفاع عن المناطق الشرقية، بينما تولى آل طوقان الدفاع عن المناطق الغربية. وقد فشلت هذه الحملة بعد تسعة أيام من المناوشات. كما تداعى أهل نابلس إلى مقاومة الحملة الفرنسية سنة 1799 التي كانت تحاصر عكا. وكتب الشيخ يوسف جرار، من زعماء جبل نابلس، قصيدة حث فيها زعماء جبل النار على الاتحاد في مواجهة هذه الغزوة، ومما جاء فيها:

آل طوقان اسحبوا لسيوفكم واعتلوا لسروجهن هل عاليات

آل النمر هالنمورة الكاسرات عدلوا صفوفكم هل باسلات

لمزيد من التفاصيل: أنظر: بشارة دومانى، "إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس 1700 – 1900" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1998)، ص 28، 50، 119 – 120.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx